نقد الاستشراق الجديد في كتاب " ما بعد الاستشراق الغزو الأمريكي للعراق وعودة الكولونياليات البيضاء"؛ مقاربة ابستيمولوجية *

Criticism of Neo-Orientalism in the book “Post-Orientalism: The American Invasion of Iraq and the Return of White Colonialism”; Epistemological approach

أ. د سامية إدريس

جامعة عبد الرحمن ميرة -بجاية- (الجزائر)،

samia.idris@univ-bejaia.dz

ملخص:

تزامنت الحركة الاستشراقية القديمة مع المد الاستعماري، لكن تغير السياق التاريخي والسوسيوثقافي أفرز نقدا حادا للاستشراق أدى إلى تراجعه، لكنه لم يلبث أن عاد في صورة جديدة، وأنتجت خطابا استشراقيا جديدا لا يختلف إلا قليلا عن الاستشراق الكلاسيكي. أحصى فاضل الربيعي في كتابه عددا من الصور المغرضة التي مهدت ورافقت الغزو الأمريكي للعراق في نقده للاستشراق الجديد، وتفكيكه لمنهج الدراسات الشرقية التي تعتاش على نتائج الاستشراق القديم، بدلا من إنتاج معرفة حقيقية بالآخر.

توصل فاضل الربيعي في نقده لما بعد الاستشراق إلى أنه يرتكز على فواعله الداخلية أكثر مما تركز على الخارج، لكنه ينأى عن تقديم أي نقد لنظام البعث ودوره في افراز النخب المشوهة والتي صارت بوقا يصدح بخطاب استشراقي فج، ولا يحفر في الأسس المعرفية للاستشراق الجديد، كما لا يؤصل لنقده في نظريات ما بعد الحداثة والعولمة والحداثة وما إليها، ولا يمارس أي جهد انعكاسي يفكك انحيازات الذات متجاهلا بذلك مشكلة الذاتية وغياب الموضوعية عن خطابه.

الكلمات المفاتيح: فاضل الربيعي، ما بعد الاستشراق، الكولونيالية البيضاء، نقد الاستشراق الجديد.، الغزو الأمريكي للعراق.

Abstract:

The old Orientalist movement coincided with the colonial tide, but the change in the historical and sociocultural context gave rise to a sharp criticism of Orientalism that led to its decline. However, it soon re-emerged in a new form, producing a new Orientalist discourse that differs only slightly from classical Orientalism.

*

تاريخ استلام البحث: 2024/06/18	تاريخ قبول البحث: 2024/10/01	تاريخ النشر: 2024 /10/15

In his criticism of post-Orientalism, Fadel Al-Rubaie concluded that it is more focused on internal factors than external ones, Yet, he refrains from presenting any criticism of the Baath regime and its role in producing distorted elites that have become loudspeakers for crude Orientalist discourse, He does not delve into the cognitive foundations of the new Orientalism, nor does he root his criticism in the theories of postmodernism, globalization, modernity, etc., Aditionally, he does not engage in any reflective effort to dismantle the biases of the self, thus ignoring the problem of subjectivity and the absence of objectivity in his discourse.

Keywords: Orientalism. Neo-Orientalism., Critique of Orientalism., Critique of Neo-Orientalism., The American invasion of Irak.

مقدمة:

تزامنت الحركة الاستشراقية القديمة مع المد الاستعماري ومكنت له بشكل مباشر، لكن تغير السياق التاريخي والسوسيوثقافي أفرز نقدا حادا للاستشراق أدى إلى تراجعه، لكنه لم يلبث أن عاد في صورة جديدة، خلال الحرب الباردة، تحت مسميات مختلفة على غرار الدراسات المناطقية، وظهرت مراكز بحثية مرتبطة بشكل أو بآخر بالنظم الإمبريالية، أنتجت خطابا استشراقيا جديدا لا يختلف إلا قليلا عن الاستشراق الكلاسيكي، وقد وضح حسن حنفي في نقده للاستشراق أن هذا الخطاب لا يمثل قطيعة مع الاستشراق الكلاسيكي، بقدر ما هو إعادة تأهيل له، وهو يكرر ويعيد طرح نفس الصور النمطية المشوهة عن الإسلام والمسلمين.

أحصى فاضل الربيعي عددا من هذه الصور المغرضة التي مهدت ورافقت الغزو الأمريكي للعراق في دراسته المعنونة " ما بعد الاستشراق الغزو الأمريكي للعراق وعودة الكولونياليات البيضاء". حيث يشكل هذا الكتاب مثالا ناصعا عن نقد الاستشراق الجديد، وتفكيكا منهجيا دقيقا لحقل الدراسات الشرقية التي تعتاش على نتائج الاستشراق القديم، بدلا من إنتاج معرفة حقيقية بالآخر، وهو يؤكد في كتابه أطروحة الاستشراق الجديد من خلال حالة نموذجية هي الغزو الأمريكي للعراق فالاستشراق الجديد لا يختلف في بواعثه عن الاستشراق القديم، لأنه ينطلق من هاجس الهيمنة نفسه، ويعمل كعجلة في دولاب الامبريالية المتوحشة.

1. إضاءة تاريخية مفهومية: عن الاستشراق والاستشراق الجديد ونقدهما

أ. نشأة الاستشراق

نشأ الاستشراق على نقاط التماس بين الحضارة العربية الإسلامية والغرب، وارتبط بالحملات التنصيرية أولا ثم بالمد الاستعماري الذي أسفرت عنه حركة التنوير والحداثة في أوربا. فقد ولد الاستشراق بقرار كنسي سنة 1312م، «يَعتبر الغرب المسيحي أن الاستشراق قد بدأ وجوده الرسمي بالقرار الذي اتخذه مجلس الكنائس في مدينة فيين الفرنسية بإنشاء سلسلة من كراسي الاستاذية "للغات العربية، واليونانية، والعبرية، والسريانية في باريس، وأوكسفورد، وبولونيا، وأفنيون، وسالامانكا..»[1]. وهو في معناه الدقيق مجال من مجالات البحث الأكاديمي التي تعنى بدراسة العالم العربي والشرق الأقصى، وقد تزامن ازدهار هذه الدراسات مع عصر التمركز الاستعماري، «وبشكل خاص إلى السيطرة الأوربية على "القارات المنسية" (في أواسط القرن التاسع عشر، ثم في ثلثه الأخير): فكانت الموجة الأولى تتصف بإيجاد الجمعيات الاستشراقية (باتافيا 1781، الجمعية الملكية الآسيوية، لندن 1834) ثم الجمعية الآسيوية (باريس 1822، والجمعية الأمريكية الشرقية 1873...الخ). وكان عدد المؤتمرات التي عقدت حتى حرب (1914 – 1918) ستة عشر مؤتمرا (آخرها في فيينا عام 1912). ولم ينعقد منذ ذلك الحين إلا أربعة مؤتمرات..»[2].

ب.مفهوم "الاستشراق" عند إدوارد سعيد

كما أسند للاستشراق مفهوم ضيق مرتبط بالبحث الأكاديمي، «فالمستشرق كل من يعمل بالتدريس أو الكتابة أو إجراء لبحوث في موضوعات خاصة بالشرق، سواء كان ذلك في مجال الأنثروبولوجيا أي علم الإنسان، أو علم الاجتماع، أو التاريخ، أو فقه اللغة، وسواء كان ذلك يتصل بجوانب الشرق العامة أو الخاصة، والاستشراق إذن وصف لهذا العمل»[3]، لكنه اتخذ معنى واسعا يربطه بجملة التمثلات والتمثيلات التي أنتجها الغرب في ميادين العلوم الاجتماعية والإنسانية والفكرية والفنية والإعلامية والأدبية والسينمائية وغيرها حول الشرق. يقول ادوارد سعيد: «للاستشراق معنى أعم وأشمل، يتصل بهذه التقاليد الأكاديمية (...) فالاستشراق أسلوب تفكير يقوم على التمييز الوجودي والمعرفي بين ما يسمى "الشرق"، وبين ما يسمى (في معظم الأحيان) "الغرب"»[4]. مستعينا بأفكار فوكو حول الخطاب، والسلطة والمعرفة، إذ يعيد ادوارد سعيد قراءة نتاج الاستشراق الغربي لصياغة مفهومه عن "خطاب الاستشراق" ليكشف التواطؤ وتجنيد المعرفة للسلطة الاستعمارية والإمبريالية، ويركز على الأهداف السياسية المهيمنة على هذا الخطاب وتوظيف مفاهيم معرفية وثقافية من أجل تحويل الشرق من صورته الواقعية إلى صورة أخرى يريد الغرب إيجادها للشرق تمهيدا للسيطرة عليه والتحكم فيه، وذلك حين يدرس الاستشراق بصفته «المؤسسة الجماعية للتعامل مع الشرق

– والتعامل معه معناه التحدث عنه، واعتماد آراء معينة، ووصفه، وتدريسه للطلاب، وتسوية الأوضاع فيه، والسيطرة عليه، وباختصار بصفة الاستشراق أسلوبا غربيا للهيمنة على الشرق، وإعادة بنائه، والتسلط عليه»[5].

ت.طبيعة ووظائف المعرفة الاستشراقية

أنتج الاستشراق صورة متخيلة عن الشرق، تراكمت عبر قرون من التشكل، وأسهم في انتاجها الرحالة والمستكشفون والأدباء والدارسون. تحولت هذه الصورة إلى وعي أو لاوعي يسكن الذاكرة الجماعية الأوربية ويشترط معرفتها بالآخر عبر أحكام مسبقة، متكررة وثابتة، مفعمة بالتمركز على الذات وتحقير الآخر. «إن الصورة النمطية التي تظافرت لتركيبها حتى اكتملت عوامل متعدّدة، هي إذا المصدر الرئيس لمن يتطلع إلى معرفة الشرق/الإسلام. ولا شك في أن رصد نتائج الدراسات اللاحقة التي أجريت ميدانيا في حقول متعددة، كالإعلام والمدرسة والأدب يفضي إلى ملاحظة مهمة، وهي أن كل هذه الحقول لم تنفلت مرجعيا من سلطة تراث الاستشراق. إنها مجتمعة، تقدم ملامح واحدة للشرقي، وهي ملامح تنقل إلى المتلقي باستمرار مشهدا جغرافيا جديدا، ومجتمعا بدويا متخلفا نزّاعا إلى العنف والجنس والخمول»[6].

وقد وضح الباحث عبد النبي اصطيف خصائص المعرفة الاستشراقية في النقاط التالية:

* كونها معرفة مؤسسة على جهل عريق، فقد كان المسيحيون في القرون العشرة التي سبقت الحروب الصليبية يتوجسون من الإسلام ويرون فيه خطرا على المسيحية، وبقوا على جهلهم به حتى بعد الاحتكاك عن قرب بالمسلمين إبان الحروب الصليبية وغزوهم لأراضي المسلمين، إذ لم يبذلوا جهدا يذكر في التعرف على الإسلام والمسلمين بل استسلموا لخيال المنتصر المشحون بالاحتقار للآخر.

* لا يتمتع الشرق بأي وجود مستقل في المعرفة الاستشراقية رغم أنه موضوعها، فهو مهم بمقدار صلته بالغرب واهتماماته ومصالحه وأهوائه، ولا وجود له في ذاته، ولا يمكن النظر إليه من منطقه الخاص به. فالشرق بوصفه تاريخا ومجتمعا وثقافة مغيب في المعرفة الاستشراقية، وما هو إلا ذريعة لإسقاطات ذاتية متحيزة عنصرية أنتجها الخطاب الاستشراقي. «وهكذا، فإن اهتمام الغرب في دراسته للتراث اللغوي والديني للشرق قد انصرف إلى تلك الجوانب المتصلة بالأراضي المقدسة والتوراة وأسفارها وترجماتها، أمام الجوانب الأخرى المتصلة بتاريخ الشرقيين ومواريثهم وثقافتهم ومجتمعاتهم فقد درست لتؤكد طبيعة الهوية الأوربية التي تقف على النقيض من الهوية الشرقية في كل وجه، فهي الإيجاب برمته مقابل السلب برمته والذي يمثله الشرق»[7].

* اتخذت المعرفة الاستشراقية مظلة ايديولوجية لكل ما ارتكبه الغرب في حق الشرق من انتهاكات، وقد أثبت ادوارد سعيد في مؤلفاته كيف أن هذه المعرفة شريكة متواطئة للامبريالية الأوربية والأمريكية في توسعها في سائر العالم في القرنين الماضيين.

* تخلف المعرفة الاستشراقية قياسا لباقي المعارف التي أنتجها الغرب عن نفسه، «ففضلا عن كونها أبعد ما تكون عن الموضوعية، ومحفوزة أساسا بدوافع الهيمنة والسيطرة على الآخر، وحاملة لجملة من التضمنات الأيديولوجية المريضة، فإنها لم تحقق أي فتح معرفي يمكن أن يسجل لها، بل كانت في أغلب الأحيان مجرد توسّع تطبيقي للون معرفي غربي، ينتمي إلى طبقة أدنى»[8].

ث.في نقد الاستشراق

عرف الاستشراق الكلاسيكي أزمة حادة خاصة مع النقد الحاد الذي طال الحداثة الغربية من الداخل والخارج، والولوج في المابعديات وتطور مناهج العلوم الإنسانية والاجتماعية، «إلى جانب النواقص الصارخة التي كانت تعتري الأطروحة الاستشراقية الكلاسيكية؛ كاستبطانها لفكرة التفوق العرقي، والمركزية الأوربية، وكذلك تبنيها للرؤية الجوهرانية والمثالية للحضارات الأخرى، ثم ارتباطها المسيء بحركات الاحتلال، والاستيلاء التي ارتكبتها القوى الأوربية في بلاد المشرق»[9]، وقد أسهمت عدة عوامل في ضمور الاستشراق بمعناه القديم، من أبرزها:

- انهيار ميزان القوى التقليدية ممثلة في المد الاستعماري الفرنسي والإنجليزي الأوربيين، ونيل معظم الدول الآسيوية والإفريقية استقلالها السياسي وطموحها للتعبير عن نفسها في ظل وضع جديد بدأ يتحدد مع ما يعرف بالحرب الباردة. وقد شكل مؤتمر باندونغ 1955 لحظة فارقة في تأكيد وجود "شرق" غير متخيل، عصيّ على موضوع الاستشراق الكلاسيكي. «يمكن القول إن النضال والتحرير والاستقلال كانت مقدمات ضرورية لإجبار الاستشراق الكلاسيكي على مراجعة بعض أطروحاته التي سلب بها الشرق وجوده الفعلي وأحاله إلى مجرد خزان لتمثّلاته. فها هي الشعوب التي قدر لها في ظل المعرفة الاستشراقية أن تكون محكومة وخانعة ومستسلمة وعاجزة في أصل تكوّنها الأول عن الحراك الإيجابي سياسيا وثقافيا، تتحدّى سلبيتها وفاعلية غيرها (...) ولا ريب في أن بناء الدول الوطنية مثّل المنجز الميداني التاريخي الدّال على أنّ "آخر" الغرب بدأ يصنع هو أيضا تاريخه ومعقولية وجوده»[10]، وأفضى هذا إلى ضمور تدريجي لمصطلح الشرق الذي يحجب التنوع الجغرافي والثقافي والتاريخي لدول العالم الثالث.

- بروز نقد الاستشراق بوصفه خطابا يهدف إلى تفكيك الصورة النمطية التي أنتجتها المعرفة الاستشراقية، وتعتبر دراسة أور عبد الملك الموسومة "الاستشراق في أزمة" التي صدرت بالفرنسية خمسة عشر عاما قبل فتوحات ادوارد سعيد في كتابه عن الاستشراق، فاتحة زمن نقدي مفصلي في تاريخ الاستشراق،

«وقد نبّه فيها إلى المآزق الفكرية والأخلاقية التي نتجت عن أطروحاته»[11]، وخلص إلى الدعوة إلى اعتماد توجه جديد في التعامل مع الاستشراق. وهو ما قام به ادوارد سعيد في أطروحته التي تدرس بنية الاستشراق وتفكك خطابه في إطار الثقافة والحضارة الغربية التي أنتجته، وقد شكلت دراساته منعطفا في تاريخ الفكر الاستشراقي لما لقيه من رواج بين نقد وتأييد، وترجمته إلى أكثر من خمسة عشرة لغة عبر العالم.

- التخلي عن مصطلح "الاستشراق" من قبل المستشرقين أنفسهم، بداية من مؤتمر 1973 الذي أعاد أخضعت فيه طبيعة المعرفة الاستشراقية للمساءلة، وقد أفضى إلى استبدال تسمية المؤتمر إلى "المؤتمر الدولي للعلوم الإنسانية في آسيا وأفريقيا الشمالية"، حيث لم يعد الشرق في كليته وواحديته موضوعا للبحث، وحل محله آخر متعدد، كما ستحل العلوم الإنسانية محل الاستشراق تلبية للتحولات الحاصلة في مناهج العلوم الإنسانية والاجتماعية والتي باتت تلفظ كل تصور جوهراني عن الذات والآخر وعن الثقافة والهوية، ومما خلص إليه هذا المؤتمر «ضرورة تجريد المستشرق من القوة المعرفية التي كانت تضعه حليفا أو مرشدا أو مستكشفا بالاستباق للسياسي والعسكري والمبشّر والتاجر ولكل من كان مسكونا بهوى الشرق وطلاسمه وسحره وكنوزه»[12]، وكان يفترض هذا الاعلان عن نهاية الاستشراق بمفهومه الكلاسيكي أن يفضي إلى التخلص من التراث السلبي للاستشراق، لكن هذا التراث ظل فاعلا في صور أخرى، حيث ظهر استشراق جديد يتقاطع في جوانب كثيرة مع الاستشراق الكلاسيكي.

ج. في مفهوم الاستشراق الجديد ونقده

شهد منتصف القرن العشرين تحولات كثيرة أفضت إلى الاعلان عن نهاية الاستشراق وبداية استشراق من نوع آخر، يعتمد على تعدد المداخل من العلوم الإنسانية والاجتماعية، «وهي مرحلة ارتفع فيها صوت الحياد، والنسبية، والموضوعية، إلى حدّ ما، وواجهت فيها المضامين والمناهج والأدوات الاستشراقية الكلاسيكية هجوما كبيرا، ثم إنه مع سقوط الاتحاد السوفييتي ونهاية الحرب الباردة، والتي حضرت لاستقبال أطروحة صراع أو صدام الحضارات»[13]، تلك الأطروحة الخطيرة التي أفضت إلى جعل الإسلام عدو جديدا للولايات المتحدة الأمريكية التي هيمنت على العالم بعد سقوط الاتحاد السوفييتي، وطورت نوعا جديدا من الاستشراق يخدم مشاريعها الإمبريالية، «وكما كان تطور الاستشراق الأكاديمي في القرن التاسع عشر مرتبطا بتوسع القوى الأوربية في الأراضي الإسلامية كان تطور دراسات الشرق الأوسط – كحقل أكاديمي- مرتبطا بشدة بظهور الولايات المتحدة الأمريكية كقوة عالمية عظمى، وتورطها بشكل أعمق في الشرق الأوسط»[14]. فبعد الحرب العالمية الثانية، تسابقت الجامعات الأمريكية إلى تطوير دراسات المناطق، بتمويل متزايد، حكومي وغير

حكومي، خاصة في مجال دراسات الشرق الأوسط، وظهر مصطلح "مستودع الأفكار" بوصفه فضاء يجمع علماء الدفاع والمخططين العسكريين لمناقشة الاستراتيجيات المتعلقة بالسياسة الخارجية، والتي تمخضت عنها مراكز البحوث والدراسات التي تهدف إلى تركيز الجهود البحثية خدمة لصناع القرار، وتطور نشاط هذه المراكز من بعد تام عن السياسة إلى انخراط قوي فيها، ورغبة مباشرة في التأثير على توجهات السياسة الخارجية الأمريكية، «وكانت هذه المراكز أحد مواقع إنتاج الخطاب الاستشراقي الجديد، وتمارس أدوارها بأساليب عدة، منها: كتابة التقارير الاستراتيجية، ومنها تقديم الاستشارات لمراكز صناعة القرار السياسي، ومنها تكثيف الظهور الإعلامي لمنسوبيها، للتعليق على الأحداث، وقد كان وما زال الخطاب الإعلامي في البرامج والأفلام والمسلسلات، وسائر المواد المكتوبة في الصحف من التقارير والحوارات والمراجعات، أحد أهم مواقع إنتاج الخطاب الاستشراقي الجديد، إلى جوار الأبحاث الأكاديمية، ومراكز البحث»[15]، ومع ثورة الاتصالات والأنترنت والانتشار الكبير لوسائل التواصل الاجتماعي، وتكاثر الفضائيات في عصر العولمة، صار الخبير الذي يظهر في هذه القنوات هو البديل عن المستشرق القديم المتسلح بمعرفة لغوية تاريخية، والمختص في العلوم الاجتماعية المتسلح بترسانة بحثية منهجية، ليقدم معرفة تسطيحية باهتة ومتسرعة، تخدم أجندات واضحة، وتستجيب بشكل فوري لأحداث راهنة خدمة لأغراض سياسوية.

أحدث نقد الاستشراق والانتقال إلى دراسات المناطق أو الدراسات الإقليمية وغيرها من المصطلحات التي أزاحت مصطلح الاستشراق حالة من التفاؤل لدى الدارسين العرب والمسلمين، ما لبثت أن تحولت إلى توجس وحذر من عودة الاستشراق في صيغة متجددة، ليؤدي نفس الوظائف القديمة خدمة للقوة المسيطرة وهي الولايات المتحدة الأمريكية في عصرنا الحالي. يقول الباحث عبد النبي اصطيف في هذا الصدد: «لقد عانت الدراسات الاستشراقية ردحا طويلا من الزمن ما يسمى بالمركزية الأوربية (eurocentrism) في زمن النهوض الإمبريالي، وما زالت تعاني اليوم بقايا هذه المركزية الأوربية ورواسبها في الدراسات الإقليمية الراهنة. ولا أظن أن من الحكمة التمسك بهذه المركزية، أو العودة إليها، أو استبدال المركزية الأمريكية بها، لأن هذا يشكل في حقيقة الأمر انتكاسة للدراسات الشرق أوسطية التي حاول ادوارد سعيد وغيره من نقاد الاستشراق الداخليين والخارجيين (أنور عبد الملك، وعبد اللطيف الطيباوي، ورنا قباني، وحليم بركات، وغسان سلامة، وروجر أوين، وبريان تيرنر، ومكسيم رودنسون وغيرهم)، أن ينبهوا لخطورة ما ترزح تحته من وطأة الأمراض التي لحقتها بسبب المناخ الإمبريالي الذي هيمن على أجوائها، وبخاصة في القرنين الماضيين.[16]

بناء عليه ظهر مصطلح "الاستشراق الجديد" أو المتجدد، ومن أكثر التعريفات التي قدمت له ثراء ما ذهب إليه الدكتور أوليفييه مووس، أستاذ التارخ المعاصر في جامعة فريبورغ في سويسرا،

والأكاديمي في مدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية في باريس، الذي يرى أن الاستشراق الجديد: «مذهب ثقافوي جديد يقوم على تجديد وإعادة تأهيل الأطروحات الاستشراقية الكلاسيكية، ومتطلبات الدفاع عن قيم الحداثة والديموقراطية، "في سياق يتميز بأدلجة متنامية للعلاقات بين الشرق الأوسط والدول الغربية، تعمل على تشجيع العودة إلى قراءة ماهوية للمجال الإسلامي»[17]. يحصر هذا التعريف الاستشراق الجديد في التيار الذي يعمل على إعادة تأهيل الخطاب الاستشراقي الكلاسيكي في صيغ سوسيولوجية وأنثروبولوجية معاصرة، ويقوم الاستشراق الجديد حسب مووس على أربعة فرضيات[18]:

1. المجال الإسلامي كل متجانس، تختزل فيه التعددية إلى مفهوم جامد ذو منطوق تحقيري هو الإسلام السياسي.
2. تعارض الإسلام مع قيم الحداثة، ويترتب عن هذا أن التخلف في العالم الإسلامي يعزى إلى عوامل تتعلق بالهوية في تلك المجتمعات وإلى النقائص الثقافية في الإسلام نفسه.
3. جمود العالم الإسلامي خلافا للنمط الغربي الديناميكي الحديث.
4. العنف الإسلامي هو نتاج ثقافي، ففي المقاربة الاستشراقية الجديدة يرتبط مخيال الإرهاب بشكل وثيق بتعريف العقلية العربية، وهو ما يفسر استخدام الإرهاب كنتيجة للتأخر الثقافي وخصائص محددة لثقافة عربية إسلامية.

ينضوي كتاب "ما بعد الاستشراق؛ الغزو الأمريكي للعراق وعودة الكولونياليات البيضاء" لفاضل الربيعي بحكم موضوعه ومغزاه ضمن نطاق نقد الاستشراق الجديد عن طريق الكشف عن الأواصر التي تربطه بالاستشراق الكلاسيكي، متخذا من غزو العراق واقعا نموذجيا يشرح من خلاله اشتغال خطاب الاستشراق الجديد في أفق استعماري معاصر مجندا لذلك جملة من التحليلات التاريخية والمقارنات التي تفضي إلى تأكيد استمرارية التواطؤ بين المعرفة والسلطة في تمثيل الآخر، وتظهر خصوصية الاستشراق الجديد الذي يوظف أيادي داخلية من "المشرقيين" أنفسهم لتكريس سطوته من خلالهم.

2. قراءة في كتاب "ما بعد الاستشراق؛ الغزو الأمريكي للعراق وعودة الكولونياليات البيضاء" لفاضل الربيعي

أ. التعريف بالمؤلف:

فاضل الربيعي مفكر وباحث عراقي من مواليد 1952 في بغداد، يحمل الجنسية الهولندية ويقيم بها منذ 1996، وقد كانت نشأته السياسية في احضان الحزب الشيوعي العراقي، وبدأ حياته اديبا وقصاصا

وصحفيا، وقد نفي من العراق عام 1979 بسبب مواقفه السياسية، وتنقل بين عدة دول منها فلسطين واليمن وسوريا وهولندا. له عدة مؤلفات في التاريخ والجغرافيا والتراث واللاهوت وعلم الآثار والميثولوجيا واللغات القديمة وغيرها، وهو يثير الجدل كل مرة بأطروحاته التي تذهب عكس ما هو متعارف عليه، وتناقض صريح النصوص التاريخية والدينية أحيانا، مما جعل الكثير من المتخصصين ينكرون علمية أبحاثه ويطعنون في مصداقيتها ويصفونها بالتهافت. أما الخيط الناظم لأعماله فهو الكشف عن زيف الطروحات التاريخية واللاهوتية في الاستشراق الكلاسيكي والجديد، وإثبات خيالية السرديات التاريخية في التوراة خاصة، وتقديم تأويلات مغايرة عن الهويات التي استوطنت الشرق الأوسط.

ب. التعريف بالكتاب:

صدر كتاب ""ما بعد الاستشراق؛ الغزو الأمريكي للعراق وعودة الكولونياليات البيضاء" لفاضل الربيعي في طبعته الأولى سنة 2007 عن مركز دراسات الوحدة العربية في 403 صفحة، وهو يتألف من ستة فصول، يتلوها ملحق ويسبقها تمهيد علاوة على "خلاصة تنفيذية" تتصدر الكتاب من 19 صفحة، تعرض أطروحة الكتاب واستدلالاته، وأهم النتائج التي توقف عليها الباحث.

تتمتع العنونة في كتاب الربيعي برمزية قوية، سواء في العنوان الرئيسي للكتاب، أو في عناوين فصوله الفرعية، التي تستمد منظومتها الاصطلاحية من أدبيات النقد الثقافي والنقد الكولونيالي تحديدا (استشراق، تخيل، أوهام، أساطير، رمزيات..)، وتشتغل هذه العناوين وفق نمط استعاري زاخر بالدلالات على غرار عبارة "الكولونياليات البيضاء" التي تحيل على زخم فكري مرتبط بالتحرر من الاستعمار المنتشي بعقيدة تفوق البيض على بقية "الأعراق".

ح. عن أطروحة الكتاب ومنهجيته

يعمل كتاب فاضل الربيعي على تفكيك طروحات الاستشراق الجديد التي مهدت ورافقت غزو العراق في 2001، وهو بذلك كتاب في نقد الاستشراق الجديد، والذي يصطلح عليه في كتابه بعبارة "ما بعد الاستشراق". يعرف الربيعي ما بعد الاستشراق بأنه: «مجموع الكتابات والدراسات والتقارير والبحوث والمواد الفكرية والياسية الصادرة عن الجامعات، أو عن مراكز الدراسات والبحوث في الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا. وهو كذلك جميع المواد الإعلامية والتعليقات التي درست وحللت، أو علقت على أحداث ووقائع تخص مجتمعات الشرق العربي المسلم، ووجدت طريقها إلى مراكز صنع القرار كمقترحات تنفيذية. وهذه ينتجها، عادة، عاملون في مجالات البحث التاريخي والاجتماعي والسياسي والثقافي والإعلامي، ويساهم فيها إلى جانب الدارسين المتخصصين، جامعو معلومات ومنتجو برامج وأفلام، وحتى كتاب أعمدة في كبريات الصحف الغربية، فضلا عن جيش الموظفين الذين يكرسون كل أوقاتهم لدراسة المعلومات والمواد، والتحقق من مصادرها»[19]. يشتغل

هذا الكم الهائل من المعلومات ذات المصادر المتنوعة في اتجاه واحد، يكرس الأطماع الاستعمارية للغرب، ويخدم أغراضها التوسعية، وقد جعل المؤلف نصب عينيه الكشف عن طبيعتها التي تتماهى مع ما أنتجه الاستشراق الكلاسيكي، وهي -في نظره- مهمة ملحة عاجلة، يجدر بالعرب الذين صاروا موضوعا لها، أن يتصدوا لتفكيك صورها النمطية المتكررة والمعاد انتاجها، «فقد باتت الحاجة ملحة أكثر فأكثر لدراسة موضوعية تعيد ربط "ما بعد الاستشراق" برمته، باستراتيجية الغرب الهادفة إلى تأمين عودة الاستعمار من جديد إلى المنطقة»[20]، وهذا ما يسعى إلى تحقيقه في هذا الكتاب من خلال دراسة الحالة العراقية التي انتهت بالغزو الأمريكي واحتلال البلاد.

يخصص الربيعي الفصول الأربعة الأولى لتاريخ العراق من منظور الاستشراق السياسي، ففي الفصل الأول المعنون "من رحلات الاستشراق الأولى إلى ما بعد الاستشراق"، يرصد الربيعي تشكلات الصور النمطية عن العراق قائلا: «كان العراق يتراءى في عيون الطامعين وباستمرار، كامتداد جغرافي أو ثقافي لبلد آخر، إن قابليته الثقافية العالية ليصبح عراقا إيرانيا (أعجميا) أو عراقا تركيا، هي واحدة من أسرار هذا اللد التاريخية والسوسيولوجية، الذي ما انفكت محاولات دمجه وتذويبه في بلد آخر تتواتر مع اختلاف سحنات وثقافات الحالمين بضمّه. في هذا الوقت كان البريطانيون والألمان والروس والفرنسيون والهولنديون المتنافسون والمتزاحمون بالمناكب عند شواطئ الخليج العربي، يكتبون نهاية إيران القاجارية وتركيا العثمانية معا، ويأخذون العراق من معصميه ليقودوه في دروب الغرب؛ ولتبدأ حقبة طويلة سوف يرى فيها نفسه وقد أضحى هدفا لتخيل من نوع جديد. لن يصبح بعد اليوم، لا صفويا قاجاريا ولا عثمانيا - تركيا. سوف يصبح مع البريطانيين عراقا هنديا ثم مع الأمريكيين عراقا أفغانيا»[21].

يجري الربيعي تحليلا تاريخيا مقارنا مستندا على مجموعة من الكتب في التاريخ، وتحليلا لخطب ونصوص ساسة تلك الحقب التاريخية ورحالتها ووثائق ومذكرات، وينتقي من الحوادث ما يدعم أطروحته حول تشكل صور نمطية تشتغل وفق مبدأ الدمج والمماثلة، دمج العراق بامتدادات جغرافية أو كيانات ثقافية مغايرة عن طريق اختلاق (تخيل) مماثلة بينه وبينها. وهو يركز في الفصل الثاني المعنون "هوس تخيل العراق" على الخلفيات التاريخية والتوترات التي صاحبت تشكل صورة العراق بوصفه امتدادا للهند مع الاستعمار البريطاني، و«تكريس وجود متخيل لجماعات بدوية متلهفة لمجيء البريطانيين من أجل تحويل بلادهم إلى "بومباي" ثانية»[22]. ويخصص الفصل الثالث المعنون "حول التاريخ الاستشراقي" للشق الثاني من أطروحته، والمتمثلة في دور النخب المحلية في تعزيز الخطاب الاستشراقي والتمكين له، من خلال النخب الدينية الشيعية في النجف، والتي وظفها المستعمر في مواجهة التمرد عليه. ويتعمق في إظهار أوهام النخب الليبرالية هذه المرة، والتي انجرت وراء الخطاب

الاستشراقي البريطاني، ورأت في الغزاة محررين من "الاستبداد التركي" الذي روج له الخطاب الاستشراقي البريطاني، وفي ظل غياب نخبة فكرية في العراق مطلع عصر النهضة، كما يقول الربيعي، استأثر الأدباء بهذا الدور، وكانت ثقافتهم ضحلة سهلت انقيادهم لأوهام الخطاب الاستشراقي. يركز الربيعي في هذا الفصل على تحليل نصوص أدبية شعرية خاصة للزهاوي والرصافي، تظهر "أوهام النخبة" و"اخفاقات الليبرالية الجديدة". وقد استهل الفصل بمقولة للزهاوي 1906: «بريطانيا العظمى حررتنا من الاستبداد. والأمل كل الأمل أن تحررنا من الجهل». لقد انتقلت عدى التخيل إلى النخب، «في العراق، مثلا، وبعد أن سقط حكم الأتراك وحدث الاحتلال البريطاني لم يعد البريطانيون وحدهم من يقوم بتخيل الآخرين المستعمَرين في صورة محرَّرين؛ بل أصبح الآخرون، وهم في الأصل موضوع ومادة التخيل الأولية والخام؛ قوة التخيل الجديدة التي سوف تتولى بالنيابة عن البريطانيين تسويق وهم التحرير والحداثة ووعود الإصلاح في مجتمعها. ستقوم النخبة ونيابة عن الإنجليز بتخيّل العراق على أنه عراق متحرر وجديد طالع من الجلباب العثماني، ولتقوم منذئذ بتسويق أوهامها في المجتمع»[23] لكن هذه الأوهام كما لبثت أن تلاشت بعد الكشف عن وجه الاستعمار القبيح.

لكن هذه النخبة الليبرالية العراقية الواهمة استنسخت نفسها مع الاحتلال الأمريكي للعراق الذي جاء ليحرر العراق من استبداد داخلي هذه المرة، ورحبت بالتدخل العسكري لفرض الديمقراطية. يقول الربيعي: «في الاستشراق الكلاسيكي كانت الديمقراطية المفروضة بالقوة من الخارج سبيلا لإنشاء امتداد كولونيالي. أما في بعد الاستشراق، فإن الديمقراطية ستغدو، ومن دون لبس، امتدادا لمتطلبات الأمن القومي للغرب، أنها ستتحول إلى متطلبات خارجية وحاجات غير ديمقراطية، يبدو الغرب بأمس الحاجة إليها (...) وهذا ما لا يريد الليبراليون رؤيته أو امعان الفكر فيه»[24].

في الفصل الخامس المعنون "من الهند القديمة إلى أفغانستان الجديدة؛ عودة الكولونياليات البيضاء"، يتوقف الربيعي على الصورة النمطية الجديدة التي تشكلت تحت تأثير الاستشراق الجديد حول العراق الذي يتم تخيله هذه المرة امتدادا لأفغانستان ومماثلا له، وحيث لعبت النخب المحلية دورا فاعلا في الترويج لخطاب الاستشراق الجديد، ويؤكد الربيعي على هذه النقطة بوصفها الفارق الجوهري والحقيقي بين عالمي الاستشراق وما بعد الاستشراق.

لقد لعبت النخب الفكرية العربية التي تتعامل بشكل مباشر مع منتجات الاستشراق الجديد من خلال الأنترنيت والفضائيات ومراكز البحوث دورا مهما في إعادة انتاج الصورة النمطية عن المسلم الإرهابي، «وبينما تميل النخب إلى تصديق أسطورة وجود عدو متسلل إرهابي إسلامي، تميل الغالبية من الجمهور العام إلى التحفظ عن درجة المبالغة في هذه الصور، وترى فيها نوعا من صناعة خوف، لا قصد لها سوى إثارة الذعر في العالم من العرب والمسلمين. وهذا بلا مراء في صالح الصور النمطية التي

رسمتها إسرائيل منذ الأربعينات من القرن الماضي، وظهر فيها العربي في صورة شخص بدين فاسد الأخلاق»[25].

في الفصل السادس والأخير المعنون "أساطير ما بعد الاستشراق"، يحلل الربيعي أربعة أساطير تم الترويج لها قبيل احتلال العراق من طرف الخطاب الاستشراقي الجديد، أساطير ما لبث العالم أن اكتشف زيفها، ومن خلالها يحلل المؤلف طبيعة الوظائف التي اضطلع بها الاستشراق الجديد، والأساليب التي اتبعها في صياغة موضوعات خطابه الكولونيالي التي اشتق رمزياتها من داخل الرمزيات القديمة للاستشراق الكلاسيكي.

كان الاستشراق الكلاسيكي ينتج صورا عن العرب بوصفهم بدوا متوحشين بأسنان طويلة وعيون متوهجة. حلت محل هذه الصورة في الاستشراق الجديد صور مماثلة عن بدوي جديد يمتلك لحية كثة، غير مهذبة، ويرتدي ثيابا تقصر عن الركبة بضعة سنتيمترات. فإذا كانت الصورة الأولى ترمي إلى "حيونة" الإنسان العربي، فإن الصورة الثانية تنكص به إلى البدائية والهمجية والعدوان، مجردا من أي باعث سوى نوازع الشر اتجاه المدنية. وقد استغلت هذه الصور عن الجماعات الإرهابية من ذوي اللحى لتدمير كل مقاومة لاحتلال العراق من طرف المتطوعين العرب ومن العراقيين بتواطؤ من النخب المحلية الليبرالية وحتى الإسلامية المعتدلة في نظر الأمريكان. «ولكن، لئن تحولت أسطورة "البدو ذوي اللحى الطويلة" إلى ما يشبه أسطورة جديدة عن العدو نفسه، القديم والأزلي، الثابت والنمطي؛ فإن التحول الأهم سوف يتجلى في هذه الحالة، لا في الصور النمطية وحسب، وإنما كذلك في شكل السرد وأسلوب بناء القصص الجديدة عن الشرق»[26]، لكن الربيعي يتوصل لخلاف ذلك، فلا مضمون الصور تغير ولا أسلوب سردها تغير باستثناء إعادة صياغة طفيفة، ففي النهاية، لم يطور الاستشراق الجديد مضامين ولا أشكال خاصة به، بل ظل يعتاش على إرث الاستشراق الكلاسيكي، ويوظفه بانتظام في "صناعة الخوف" التي تخصص فيها الإعلام الأمريكي المعاصر. وقد تلقفت النخب العربية هذه الأسطورة وراحت تدافع عنها كما لو كانت روايتها بالذات، «لقد تحولت الحرب على الإرهاب إلى ما يشبه عقيدة كبرن أو إلى ما يشبه أيديولوجيا، أو حتى إلى ما يشبه الدين»[27]. يذهب الربيعي إلى أن المغزى من نشر سيل الصور عن خطر الإرهاب في العراق المحتل تزامن مع نشر وتعميم الصورة النمطية الكلاسيكية للمقاومة ضد الاحتلال بوصفها أعمالا إجرامية. ويتوصل إلى أن «تلازم فكرة الإرهاب، باعتباره نوعا من الجرائم، والمقاومة بوصفها امتدادا للإرهاب من تدبير أجانب، يمثل، من منظور عمل ما بعد الاستشراق، ذروة الدمج والتماهي في الصور؛ فكما أن العراق في الاستشراق الكلاسيكي كان يمثل امتدادا للهند، وعراق ما بعد الاستشراق يمثل امتدادا لأفغانستان؛ فسوف

تتجلى مقاومة الاحتلال الكولونيالي، كذلك، بوصفها إرهابا»[28]. وفي السياق نفسه يقع التلاعب بالمفاهيم حيث يصير الاحتلال تحريرا، والتعاون مع العدو وطنية، والدفاع عن البلد خيانة.

يرصد فاضل الربيعي تحت عنوان فرعي دال "رمزية الانتهاك" ثلاثة أساطير ما بعد استشراقية نشرها "المخياليون الأوربيون والأمريكيون" قبل غزو العراق بسنوات طويلة، وتم تعميمها في سياق النشاط الثقافي الذي صاحب الغزو الأمريكي للعراق وتلازم معه. ويظهر من خلال هذه الاساطير اشتغال ما بعد الاستشراق على الصور النمطية التي يعيد تأهيلها من تراث استشراقي كلاسيكي، ويضخها في وسائل الإعلام على أنها رمزيات جديدة.

تتمثل الأسطورة الأولى في حادثة مختلقة جرى تداولها عن قيام صدام حسين بقطع أعناق عدد من النساء العراقيات (العاهرات) وتعليقهن في الساحات العامة في بغداد والجنوب. أما الأسطورة الثانية فهي عن جمانة حنا امرأة عراقية أحبت شابا هنديا لكن القانون كان يمنع زواجهما، وقد تم اختطافها وسجنها وتعذيبها، وفور اطلاق سراحها فرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث أطلقت العنان لمخيلتها وقد تقبل الأمريكان بنهم حكاياتها عن جحيم صدام حسين، ومن الأكاذيب التي أطلقتها وجود مقبرة جماعية في باحة السجن تحوي رفاة 120 سجينا، ولم يعثر على أي أثر على صحة هذه الادعاءات، أما الأسطورة الثالثةن فهي تحكي عن وجود آلة لتقطيع البشر وفرمهم في السجن نفسها، كان يستعملها صدام حسين ضد معارضيه السياسيين.

ترتبط رمزيات الانتهاك هذه بانفلات "للجنس القذر" وتحوله غلى جزء عضوي في عقيدة القوة العسكرية في سجن أبو غريب وفي غوانتنامو، «بهذا المعنى تصبح مهمة القوى الجديدة المهيمنة على العالم، وكما ارتأت جاكلين روز إعادة الأعداء إلى "طفولته من" البشرية عراة وممزقي الوجدان بواسطة الانتهاك الجنسي. وهكذا، وبينما كان السجانون في غوانتنامو يقومون بغارة ليلية على الأسرى والمعتقلين، حيث انهالوا عليهم بالضرب من دون ما سبب وقعت خمس حالات تدنيس للمصحف الشريف؛ في إحداها، تبول عليه واحد من خمسة جنود متهمين، قيل إنه هو نفسه من قام برمي المصحف في المرحاض. هذا التطوير "للممارسات الشاذة" في اتجاه آخر، بحيث تشمل انتهاك الوجدان الشخصي، وهذه هي الدلالة الرمزية الحقيقية للاعتداء على الرمزيات الدينية للسجين: المصحف، الصلاة، العبادات، يستلهم تراثا استعماريا ضخما في أفريقيا وأمريكا اللاتينية وعموم الشرق العربي»[29]..

3. تساؤلات ابستيمولوجية حول الأطر النظرية والأدوات المنهجية لكتاب فاضل الربيعي

أ. الوعي الابستيمولوجي والمرجعيات النظرية:

تكشف المرجعيات النظرية التي استند إليها فاضل الربيعي عن وعي ابستيمولوجي متحرر من ضغوط علم التاريخ بمعناه التقليدي، مع أنه يبدي التزاما واضحا بالإطار التاريخي المشفوع بالصبغة

العلمية، فمعظم الإحالات التي اعتمد عليها، خاصة في الفصول الأولى، هي كتب عن تاريخ العراق، ومذكرات ونصوص وشهادات موثقة، ورسائل، وقد غلبت على الفصلين الأخيرين إحالات على كتب متصلة بالعلوم السياسية ودراسات في علوم الإعلام وأخبار صحفية، أما التصور النظري لظاهرة الاستشراق، فنلمسه من خلال كتابين لإدوارد سعيد هما "الاستشراق" و "الثقافة والامبرالية"، وقد أثر فكر ادوارد سعيد في توجيه المقاربة النظرية للمؤلف والتي تصب في نقد "ما بعد الاستشراق" الذي يقدمه فاضل الربيعي بوصفه امتدادا لا قطيعة للاستشراق الكلاسيكي الذي اشتغل عليه ادوارد سعيد. فالأطروحة التي قام عليها الكتاب هي اثبات أن ما بعد الاستشراق لا يعدو أن يكون استنساخا للاستشراق الكلاسيكي في طبيعة صوره، وفي بنيته وسردياته، كما في وظائفه، ولا يختص إلا باتساع مداه لما وفرته له ثورة الاتصالات من قنوات، وتنوع منتجيه والمروجين له من مفكرين وباحثين أكاديميين وإعلاميين وخبراء، كما امتدت له أذرع داخل البلدان "الشرقية" نفسها، والتي راحت نخبها تردد أطروحاته معززة السيطرة عليها، والتواطؤ على مجتمعاتها بفعل الانخداع أو التآمر مع الإمبريالية الأمريكية. وبالنظر إلى تاريخ صدور الكتاب سنوات قليلة بعد الغزو الأمريكي للعراق، فإننا قطعا أمام تاريخ الزمن الراهن، التي يطرق فيه المؤرخ باب الحاضر، ويعيد الاعتبار للتاريخ السياسي، منفتحا على مصادر متنوعة، وقد كان لتطور وسائل الإعلام وطغيان الحدث دور في توجيه الدراسة التاريخية إلى الحاضر، «بدأ التاريخ السياسي الحدثي يشهد انتعاشا منذ نهاية السبعينات؛ وذلك بتجدده من الداخل. ومن مظاهر هذا الانتعاش اكتساح التاريخ السياسي مجالات عديدة؛ فهو لم يبق مقتصرا على الظواهر الديبلوماسية والعسكرية، وإنما امتد ليشمل حوادث الساعة، في إطار ما يعرف بتاريخ الزمن الحاضر؛ إذ لم يبق الحاضر مجالا من مجالات وسائل الإعلام فقط، بل احتواه التاريخ الآني أيضا، وأصبح فرعا من فروع التاريخ، واعترف به مجالا من مجالات اهتمام المؤرخ، على الرغم من حداثة ظهوره»[30].

تندرج مقاربات نقد الاستشراق وما بعد الاستشراق، وكذا تاريخ الزمن الراهن ضمن أفق ابستيمولوجي معاصر انبثق عن فكر المابعديات، يشغل فيه مفهوم الثقافة ووجهها الآخر الذي هو التأويل مكانة مركزية في النشاط البحثي في العلوم الإنسانية والاجتماعية ما بعد الحداثية. فالابستيمولوجيا المعاصرة قائمة على نفي التماثل بين الطبيعة والحياة الاجتماعية، وسلوك الكائن الحي هو نتاج كيفية تفسير الأمم للعالم من حولها، لذلك يتطلب إدراك وتفسير الواقع المشاركة في المواقف الاجتماعية والوقوف على التفسيرات الواقعية للفاعلين، وقد اسفرت عن مناهج بديلة، أكثر جذرية مع ما يعرف بـ"المنعطف التأويلي" في العلوم الاجتماعية، والذي يحمل امكانات خصبة لمقاربة الواقع في أبعاده المختلفة وتشعباته الكثيرة.

من هذه الوجهة، يمكن أن نؤاخذ الربيعي على افتقار دراسته للشهادات الحية للفاعلين، وهي دعامة متينة في هذا النوع من الدراسات، وانكفاؤه على النصوص والأخبار، التي انشغل بدحض خطابها وفق تأويله لها، دون تقديم خطاب مواز أو بديل يفككها بأدوات الأنا ومن موقع الذات، لا بأدوات الآخر، وهي خطوة لا مناص منها في صياغة نموذج ابستيمولوجي بديل عن الطرح الاستشراقي وما بعد الاستشراقي، نموذج يخرج نقد الخطاب الاستشراقي من إطار ردود الفعل، ومن دائرة الدحض إلى دائرة التأسيس.

ب. الوعي الابستيمولوجي والخيارات المنهجية:

إذا كان الوعي الابستيمولوجي يظهر من خلال تحديد الأفق النظري للبحث، فإنه لا يعبر عن نفسه بشكل صريح إلا من خلال الخيارات المنهجية التي ترتبط بالمواقع النظرية التي وقع عليها اختيار الباحث. إن أول ما نلاحظه على دراسة فاضل الربيعي عدم الاهتمام بالتأسيس الاصطلاحي والمنهجي والتوثيقي للنصوص والوقائع التي أجرى عليها قراءة وحملها تأويلات خاصة في دراسته. فهو إذ يتحدث عن ما بعد الاستشراق، لا يحيل إلى الجهود النظرية السابقة التي مهدت الطريق لنقد الاستشراق الجديد أو المتجدد، ولا يناقش التصورات التي بشرت، بنوع من السذاجة، ببروز الاستشراق الجديد بالمعنى الأكاديمي الإيجابي المتطلع لمعرفة الآخر معرفة حقيقية تراعي منطقه الخاص وثقافته وتحترمها، وتتحاور معه على أسس إنسانية أخلاقية، بل إنه ينطلق من مواقف مسبقة حول ما أسماه "ما بعد الاستشراق" تحصره في المنظور السلبي القائم على تحقير الآخر والرغبة في الهيمنة عليه، دون الالتفات لأي استثناءات، أو التحذير من امكانية وجودها لكي لا يقع في التعميم الذي وقع فيه. كما لم يأخذ الوقت والحيز الكافي لتحليل ومناقشة أفكار وآراء المتخصصين في المجال الاستشراقي وهو يصوغ مفهومه الضيق -إلى حد ما- عن الاستشراق السياسي وما بعد الاستشراق الذي صاغه ضمن بعد أحادي مهملا أبعادا ثقافية واجتماعية أكثر عمقا وأبعد تأثيرا في البنى الأنثروبولوجية للمجتمعات في الفترات اللاحقة.

وقد عمد الربيعي في تحليله التاريخي إلى تغليب رؤية بانورامية متعجلة على الرؤية المقطعية التفكيكية التي تسمح بصياغة وتسويغ أدوات التحليل التي استخدمها وطبقها على فترات تاريخية طويلة، والمتمثلة في الناحية المنهجية الإجرائية فيما سماه مبدأ الدمج والمماثلة الذي وظفه بانتقائية على محطات تاريخية مر بها العراق، للكشف عن نمط اشتغال الصور الاستشراقية وصور ما بعد الاستشراق على السواء.

ومن الناحية الاصطلاحية، يوظف الربيعي مصطلحات من قبيل "الاسطورة" و"الرمزية" والتخيل"، "الصورة" "الأوهام" ..الخ دون تقديم تعريفات لها أو التفريق بين دلالاتها، اذا ما استثنينا وصفه لها بأنها "نتاج أكاذيب"، وفي المقابل يغيب مصطلح التمثيل و/أو التمثل عن المنظومة الاصطلاحية للدراسة.

ومما يلاحظ على دراسة الربيعي أنها تركز في نقدها لما بعد الاستشراق على فواعله الداخلية أكثر مما تركز على الخارج، تماشيا مع أطروحة المؤلف التي تجعل من استخدام "ما بعد الاستشراق" للشرقيين أنفسهم للترويج لصوره النمطية خصوصية فارقة، وربما هي الوحيدة التي تميز بينه وبين الاستشراق الكلاسيكي الذي يستنسخه. كما ينأى عن تقديم أي نقد لنظام صدام حسين مثلا، ودوره في افراز هذه النخب المشوهة "غير الوطنية" المتواطئة والتي صارت بوقا يصدح بخطاب استشراقي جِّف، فمعظم النقد الذي قدمه الربيعي نقد متموقع "على السطح"، ينطلق من قراءة خاصة بالمؤلف، يدعمها بوقائع وأحداث تاريخية من الماضي والحاضر تخدم أطروحته، ولكنه لا يحفر في الأسس المعرفية للاستشراق الجديد، كما لا يؤصل لنقده في نظريات ما بعد الحداثة وتنظيرات العولمة والحداثة السائلة والشر السائل و نقد الميديا والثقافة الجماهيرية وما إليها..الخ مما يمكن أن يوفر له مهادا معرفيا مكينا يرسي عليه تحليلاته، ويحتمي به من شبهات الاعتباطية وضعف التأسيس النظري والمنهجي لدراسته.

كما أنه لا يمارس أي جهد انعكاسي، أو أي نقد ذاتي يفكك انحيازات الذات ويبرز موقعها إزاء الموضوع الذي تدرسه، متجاهلا بذلك مشكلة الذاتية وغياب الموضوعية عن خطابه، غير مكترث بإظهار الخلفيات الفكرية والاجتماعية والشخصية التي ينطلق منها وتؤثر بشكل مباشر على قراءته للأحداث قيد الدراسة، وتحليله لها من موقعه كعراقي ضمن سياق شامل قائم على لعبة موازين القوى اللامتكافئة.

4. خاتمة:

في الختام، نستشهد بمقولة للباحث فؤاد زكريا من كتابه "نقد الاستشراق وأزمة الثقافة العربية المعاصرة؛ دراسة في المنهج"، نصها: «صحيح أنَّ الرؤية الغربية للشرق تَتَّسِم بسِمَةٍ فريدة (هي التي يتوسَّع في تحليلها نُقَّاد الاستشراق من العرَب المُعاصِرين)، هي أنها رؤية تَتِمُّ في ظروف عَداءٍ تاريخي طويل، مُقترِن برغبةٍ في السيطرة، أي إنها معرفة غير مقصودة لذاتها، لا تُشكِّل — على حدِّ تعبير إدوارد سعيد — بحثًا حُرًّا أو موضوعيًّا. ولكن تَكمِلَة الرؤية الاستشراقية برؤية أخرى «استغرابية» — كما حاوَلْنا أن نفعَلَ في هذا البحث — كفيلة بأن تَكشِف لنا عن حقيقة هامَّة، هي أنَّ الغربَ بِدورِه لا يُمكِن أن يُشكِّل بحثًا حُرًّا وموضوعيًّا بالنسبة إلى الشرقي، أو العربي، أو المُسلِم، مع فارِقٍ هامٍّ هو أن الخروج من الحرية والموضوعية — أي التَّشويه، إذا جازَ أن نَستخدِم هذا اللفظ — يتمُّ في هذه الحالة من مَوقِع الضَّعف، والرغبة في مُقاوَمَة الخُضوع والتبعية. وهكذا تتكشَّف لنا أبعادٌ جديدة لمشكلة الإدراك المُتبادَل بين الثقافات، ودوافعُ للافتِقار إلى الموضوعية في العلوم الإنسانية، أوسعُ من مُجرَّد فرض سلطةٍ القوي وسَعْيِه إلى تحقيق مَصالِحه. فالخَوف من التَّبعيَّة، أو الانتقام من السيطرة السابقة، أو تَسوية الحِساب مع القَهْر التاريخي، تَخلُق أساطيرَها الخاصَّة عن «الآخر» على نحوٍ لا يقل، بل ربما

كان يزيد، عن تلك الأساطير التي تخلُقُها المصالح التوسُّعية للمُسيطِرين»[31]. من هنا وجب البحث عن بديل رصين يفعّل الفكر الانعكاسي المتفحص لموقع الذات قبل الآخر، والتي تجعل هدفها الأسمى بناء فضاء بديل قائم على أخلاقيات الحوار الذي ينطلق من وعي أنطولوجي وابستيمولوجي بموقع الذات وتحيزاتها قدر وعيها بموقع الآخر وتحيزاته ضمن تاريخانية متشعبه المسارات.

الهوامش:

[1] ادوارد سعيد: الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2008، ص110.

[2] أنور عبد الملك: الاستشراق في أزمة، ترجمة: حسن قبيسي، مجلة الفكر العربي، عدد 32، نيسان (أبريل)-حزيران (يونيو) 1983، ص70.

[3] إدوارد سعيد: الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة: محمد عناني، ص44.

[4] إدوارد سعيد: الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة: محمد عناني، ص45.

[5] المرجع نفسه، ص46.

[6]علي الصالح مولى: "صورة الشرق النمطية..تركة الاستشراق الكبرى، تأملات في التشكل والأثر والتصدع، مجلة دراسات استشراقية، العدد 34، ربيع 2023م، ص100 و101.

[7] عبد النبي اصطيف: "نحو استشراق جديد"، مجلة الاجتهاد، العدد 50 و51، ربيع وصيف 2001، ص 55.

[8] المرجع نفسه، ص56.

[9] عبد الله بن عبد الرحمن الوهيبي: حول الاستشراق الجديد، مقدمات أولية، مجلة البيان، المملكة العربية السعودية، ط1، 1435هـ، ص42.

[10] علي الصالح مولى: "صورة الشرق النمطية..تركة الاستشراق الكبرى، تأملات في التشكل والأثر والتصدع، ص101.

[11] المرجع نفسه، ص106.

[12] علي الصالح مولى: "صورة الشرق النمطية..تركة الاستشراق الكبرى، تأملات في التشكل والأثر والتصدع، ص108.

[13] عبد الله بن عبد الرحمن الوهيبي: حول الاستشراق الجديد، مقدمات أولية، ص86 و87.

[14] المرجع نفسه، ص46.

[15] عبد الله بن عبد الرحمن الوهيبي: حول الاستشراق الجديد، مقدمات أولية، ص56 وما قبلها.

[16] عبد النبي اصطيف: "الاستشراق الأمريكي من النهضة إلى السقوط، عولمة دراسات المنطقة"، مجلة المستقبل العربي، عدد233، تموز/ يوليو 1998، ص39

[17] عبد الله بن عبد الرحمن الوهيبي: حول الاستشراق الجديد، مقدمات أولية، ص85.

[18] المرجع نفسه، ص96 و97.

[19] فاضل الربيعي: ما بعد الاستشراق، الغزو الأمريكي للعراق وعودة الكولونياليات البيضاء"، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، شباط/فبراير 2007، ص8.

[20] المرجع نفسه، ص10.

[21] فاضل الربيعي: ما بعد الاستشراق، الغزو الأمريكي للعراق وعودة الكولونياليات البيضاء"، ص51 و52.

[22] المرجع نفسه، ص 53.

[23] فاضل الربيعي: ما بعد الاستشراق، الغزو الأمريكي للعراق وعودة الكولونياليات البيضاء"، ص146 و147.

[24] المرجع نفسه، ص160.

[25] المرجع نفسه، ص19.

[26] فاضل الربيعي: ما بعد الاستشراق، الغزو الأمريكي للعراق وعودة الكولونياليات البيضاء"، ص223.

[27] المرجع نفسه، ص225.

[28] المرجع نفسه، ص246.

[29] فاضل الربيعي: ما بعد الاستشراق، الغزو الأمريكي للعراق وعودة الكولونياليات البيضاء"، ص277.

[30] خالد طحطح:"تاريخ الزمن الراهن، السياق والإشكالات"، مجلة أسطور، العدد2، تموز/ يوليو 2015، ص12.

[31] فؤاد زكرياء: "نقد الاستشراق وأزمة الثقافة العربية المعاصرة، دراسة في المنهج، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2019، ص52.

5. قائمة المراجع:

المؤلفات:

1. الوهيبي، عبد الله بن عبد الرحمن: حول الاستشراق الجديد، مقدمات أولية، مركز البحوث والدراسات، الرياض، ط1. (1435 هـ).
2. فاضل الربيعي، فاضل، ما بعد الاستشراق، الغزو الأمريكي للعراق وعودة الكولونياليات البيضاء، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت. (شباط/فبراير 2007).
3. سعيد، غدوارد، الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة.(2008).
4. زكرياء، فؤاد، نقد الاستشراق وأزمة الثقافة العربية المعاصرة، دراسة في المنهج، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، (2019).

5. المقالات:

6. اصطيف، عبد النبي، الاستشراق الأمريكي من النهضة إلى السقوط، عولمة دراسات المنطقة، مجلة المستقبل العربي، عدد233، (تموز/ يوليو 1998).
7. اصطيف، عبد النبي، نحو استشراق جديد، مجلة الاجتهاد، العدد 50 و51، (ربيع وصيف 2001).
8. طحطح، خالد، تاريخ الزمن الراهن، السياق والإشكالات، مجلة أسطور، العدد2، (تموز/ يوليو 2015).
9. عبد الملك، أنور، الاستشراق في أزمة، ترجمة: حسن قبيسي، مجلة الفكر العربي، عدد 32، نيسان (أبريل)-حزيران (يونيو 1983).
10. مولى، علس الصالح، صورة الشرق النمطية..تركة الاستشراق الكبرى، تأملات في التشكل والأثر والتصدع، مجلة دراسات استشراقية، العدد 34، (ربيع 2023م).